وقد خطر ببالي – لكثرة ما أسمعه في هذه الأيام عن « الفوضى الأدبيّة » – أن أدخل وجار هذا البعبع الرهيب . فإمّا يبطش بي وإمّا أبطش به . ولست في ما أنا فاعل مدّعياً بسالة الخضر في حربه مع التنين ولا هيبة دانيال في جب الأسود .

ما هي الفوضى ؟

يقال « الأمر فوضى » إذا لم يكن على شيء من النظام .

إذن ما هو النظام الذي إذا فُقد حلّ محله ذلك الشبح المخيف الذي ندعوه « فوضى » ؟

في الكون نظام واحد . هو النظام الذي قيّد به الخالق خليقته والذي نستدلّ عليه بمظاهره ونقصر دون إدراك كنهه . به تدور الأجرام السماوية أقصاها وأدناها . وأكبرها وأصغرها. فلا يتعدى واحد منها سبيله ولا يغير وجهته ، أو يعكس حركته.

هو النظام الذي جعل من الموت حياة ، ومن الحياة موتاً ، كيما يجدد الكون ذاته بذاته بلا انقطاع .

هو النظام الذي يتناول كل ما في الوجود من منظور وغير منظور فلا تفلت منه ذرّة رمل كما لا يفلت جبل . ويمتثل له الأوقيانوس امتثال قطرة الماء ، والجمل امتثال البعوضة . هو النظام القابض على الكون وكل ما في الكون جاعلاً منه سلسلة علل ونتائج لا بداية لها ولا نهاية . وما الإنسان المتمرد بفكره ،